النظرية النقدية:

تعد النظرية النقدية تطويرا للفكر الماركسي، بل بإمكانها أن توصف بماركسية جديدة، جاء إطارها النظري المفهوماتي في شكل انتقادات اجتماعية و ثقافية ذات توجه ماركسي، و هي نتاج لفريق من منظرين ألمان يعيش أغلبهم في المنفى بالولايات المتحدة الأمريكية، و قد عرف هذا الفريق، باسم مدرسة فرانكفورت Frankfurt School.

ومن أبرز ممثلي هذا الفريق الفكري، نجد :**يورجن هابرماس، Jürgen Habermas تيودورو هاربرت ماركيز Max Horkheimer ماكس هورخايمر، Theodore Adornoأدورنو، Herbert Marcuse Andrew Linklater** و ينضم إليهم من بريطانيا كل من**أندرو لينكلاتير Mark Hoffmann** و الأستاذ **مارك هوفمان Robert Cox وروبرت كوكس** ببريطانيا.

انطلقت النظرية النقدية – مثل باقي النظريات التكوينية الأخرى – من الفشل الواقعي في تنبؤه بنهاية الحرب الباردة و سقوط الإتحاد السوفيتي، حيث ترجع هذا الفشل إلى إهمال الانطولوجيا للمنهجية ضمن دولاتية في تحليل العلاقات الدولية، لذلك – نجد النيو واقعية و النيوليبرالية قد تجاهلت التحولات الاجتماعية العميقة التي بدأت تظهر في الداخل السوفيتي، و أدت إلى تحول في الخطاب السياسي للقادة السوفيات، و هو ما سرع في عوامل سقوط الاتحاد السوفيتي، حيث يرى أنصار النقدية أن نهاية الحرب الباردة تعود بالأساس إلى الانهيار السوفياتي الداخلي، و إلى التحول في الخطاب الأمني السوفيتي.

و تجدر الإشارة إلى لمحة مختصرة عن مدرسة فرانكفورت، باعتبارها الإطار التأسيسي الذي احتضن الفكر النقدي بكل مصادره المعرفية، و ذلك عبر تأسيس معهد الأبحاث الاجتماعية في عشرينات القرن الماضي، و قد وضعت الحلقة الدراسية الأولى للعمل الماركسي لبنات التفكير في أسباب أزمة الفكر الماركسي وإخفاق ثورة 1918 في ألمانيا، و قد جمعت الحلقة الدراسية مجموعة من الباحثين من أبرزهم رجل الأعمال **فليكس فايل،** و الاقتصادي **فريدريك بلوك،** و المفكر الماركسي **جورج لوكاتش** ورغم فشل المشروع، إلا أنه يعتبر بمثابة الانطلاقة التي دفعت بعض المشاركين في الحلقات، في التفكير جديا في تأسيس معهد الأبحاث الاجتماعية، و قد تأسس معهد الأبحاث الاجتماعية رسميا في فبراير 1923 في جامعة غوته بمدينة فرانكفورت بألمانيا.

إن تعظيم شأن العوامل الثقافية يشكّل قاسماً مشتركاً بين العديد من أصحاب المقاربات و الأفكار الماركسية الجديدة، فقد استندت بعض اتجاهات "الماركسية التحليلية" الأنغلوسكسونية، التي يمكن إدراجها ضمن "النيوماركسية"، إلى مفهوم "المادية الثقافية" و أعادت إحياء "ماركسية" **رايموند ويليامز** الذي ركّز على دور

الكلام والأدب والثقافة بوجه عام، و راهن على قدرة الفاعل على تغيير شروط وجوده و ليس على حتميات تاريخية و اجتماعية و اقتصادية متصوّرة، و حاول أحد ممثلي هذه "الماركسية التحليلية وهو **جون رومر** إعادة النظر في موقف ماركس من الطبقات و الاستغلال الطبقي، و ذلك باعتباره أن سلوك الأفراد هو الذي يفسر، في الواقع، كل الممارسات و المؤسسات الاجتماعية.

و يخلص **هابرماس** إلى إعادة الإعلاء من شأن الديمقراطية على حساب الليبرالية، و هو يعتبر إقامة دولة الحق المحترمة للحريات و المراهنة في النهاية على إعادة بناء "فضاء عمومي" يساهم المواطنون في كنفه طبقا لتعاليم الأخلاق التواصلية في إنتاج و اتخاذ القرارات العمومية مكسبا حاسما.

ويمكن تلخيص التصور النقدي للأمن فيما يلي:

- الاختيار العقلاني للدول، و هو استخدام القوة في حالة التهديد.
- بالإضافة إلى ذلك، ترتبط كثيرا إسهامات هذه النظرية بالمبادئ التي صاغتها الواقعية الجديدة والتي لا يرفضها النقديون، بل و شكلت في أحيان كثيرة مرجعيات أساسية لهذه النظرية، ومنها: بنية النظام الدولي تحدد سلوكيات الدول إما تعاونا أو تنافسا.
- تشكّل إعادة النظر في العلاقة بين النظرية و الممارسة محوراً من محاور التجديديين، الذين يحاولون إحياء تراث ممثلي "مدرسة فرانكفورت"، و من أبرزهم **تيودور أدورنو**، الذي كان قد انطلق من أن ماركس قد ترك وراءه مسائل عديدة معلّقة، وأن هدف النظرية النقدية، التي عرفّها بأنها ممارسة نظرية للبحث المتطلع إلى التغيير، هو مواجهة هذه المسائل من داخل الماركسية وليس من خارجها.

و مع **يورغن هابرماس**، انتقلت "النظرية النقدية" لـ"مدرسة فرانكفورت"من "نيو ماركسية" إلى "ما بعد ماركسية" حيث سعى **هابرماس** إلى تحرير هذه النظرية من التأثير الهيغلي – الماركسي، الذي كان يُلمس في كتابات **هوركهايمر** و **أدورنو**، و اقترح عوضاً عن بلورة نظرية عن الرأسمالية، وصياغة نقد متماسك للمجتمع الرأسمالي، القائم على التشيع و الاستلاب بحيث يحل نقد التأثيرات السلبية للنظام الرأسمالي محل نقد بنيته.

- الطبيعة الفوضوية للنظام الدولي، حتى و ان تباين التوصيف النقدي للسمة الفوضوية.
- المعضلة الأمنية تحدث نتيجة لانعدام الثقة، حتى و إن اختلف النقديون في منشأ ذلك.

على ضوء ما تقدم، تأسس البناء النقدي الاجتماعي على مسلمتين مركزيتين:

- السياسة الدولية ينظر لها كبناء اجتماعي و ليس بناءا ماديا.

- سلوك الدول في التفاعلات الدولية يتبع الطريقة التي تفكر بها، أي أنه متغير تابع لعنصر الإدراك.

و من خلال إيلاء الأهمية للبناء الاجتماعي للسياسة الدولية، وبناءا على ذلك الاتفاق مع الواقعية الجديدة بخصوص بنية النظام الدولي، يعرف النقديون البنية بالصورة التي تخدم تصورا للسياسة العالمية والمناقضة للأطر الوضعية في المعرفة، فالبنية ليست تراتبية مادية لوحدات النظام الدولي إنما هي نتاج للتفاعل الاجتماعي بين هذه الوحدات.

- ترفض النظرية النقدية مفاهيم للواقعية الجديدة، مثل مفهوم الفوضى الأبدية للنظام الدولي ومفهوم التوازن في نظام الثنائية القطبية، مفهوم المصلحة الوطنية و مفهوم المأزق الأمني...الخ معتبرة إياها مجرد مجموعة من المفاهيم الافتراضية، و الأطروحات الفكرية بشأن الطبيعة السياسية للفاعلين وعلاقتهم بالسيادة فقط، كما تسعى إلى إقامة نظام دولي على أنقاض النظام الدولي القائم على مركزية الدولة كوحدة تحليل أساسية، و المنبثقة من الطرح الواقعي للسياسة الدولية، مما يعني أن النظرية النقدية هي ثورة فكرية في مجال التنظير للعلاقات الدولية، من خلال سعيها إلى التغيير الجذري للنظام السياسي الاقتصادي العالمي القائم، و هنا تلتقي مع المثالية في سعيها لتحقيق النظام الدولي المرغوب و في نظر النقديين، لا يمكن أن ننظر للمعرفة كعنصر محايد عن ما يتصل بالإنسان أخلاقيا أو سياسيا أو أيديولوجيا أو عقائديا، لأن المعرفة ككل هي انعكاس لرغبات الإنسان و هنا يظهر مفهوم الانعكاسية Reflexivility في المنهجية الما بعد وضعية بصفة عامة، و في النظرية الاجتماعية النقدية بصفة خاصة، فالمعرفة تكشف عن النزعة الشعورية و اللاشعورية نحو بعض المصالح، القيم، الأحزاب و الطبقات، ويختلف النقديون مع الاتجاهات النظرية التقليدية فيما يلي:

_ التسليم بوجود واقع خارجي موضوعي معطى.

_ التمييز بين الموضوعي و الذاتي The Subject/Object Distinction و هو الفصل بين عالم الحقائق و الميول الذاتية للباحث الذي لم يعد أي أحد يؤمن به.

_ العلوم الاجتماعية المجردة من القيم، أي ادعاء التجرد و الحياد، Value-free Social Science في دراسات العلاقات الدولية .

- تحاول النظرية النقدية أن تستوعب عمليات و مسارات التغيير في المركب السياسي الاجتماعي كنسق متكامل، و لذلك فإنها تنظر للتاريخ كعملية متواصلة للتغيير، فهي لا تريد أن تظل مرآة عاكسة للمجتمع بكل تناقضاته و مشكلاته، بل السعي إلى التغيير الايجابي للبشرية.

- فكما يرى هبرماس- تتضمن النقدية إطارين: إطار نظري يشمل تحدياتها للواقع الاجتماعي القائم وتهجمها على الأنساق و الأطر النظرية و المفهوماتية للمنهجية الوضعية التجريبية و إطار تطبيقي يتصل بالتقويم المعياري الذي يمثل الهدف الأسمى الذي يصبو إلى تحقيقه النقديون كما تهدف النظرية النقدية، في سعيها للمعرفة إلى تحرير البشرية من البنى الجائرة للسياسة الدولية التي تهيمن عليها القوى الكبرى، ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية، وهي بذلك، تسعى لكشف القناع عن الهيمنة الشاملة للشمال الغني على الجنوب الفقير، مستندة في تحليلها على فرضيات المنظور النيو- ماركسي للعلاقات الدولية المتمثل على وجه التحديد في نظرية التبعية، كما يؤكد **روبرت كوكس** على أن النظرية النقدية على غرار النظرية في العلاقات الدولية، " دائما لشخص ما و من أجل هدف معين."

" Theory is always for someone and for some purpose."

- و هو ما يوضح اعتراف النظرية النقدية ببقاء الاتجاهات النظرية التقليدية للتنظير في العلاقات الدولية خاصة الاتجاه الماركسي و الأخلاقي، مع ضرورة المراجعة النقدية للإطار النظري المفهوماتي لواقعية **والتز** الجديدة بكيفية تمكنها من مواكبة التحولات الدولية لما بعد الحرب الباردة وكون النقدية مقاربة منهجية مسيسة هدفها دمقرطة السلوكيات، و الممارسات للحركات الاجتماعية وتحولات العلاقات الاقتصادية و الطبقية، يعرضها لانتقادات لادعة، فإذا كانت نظرية العلاقات الدولية هي حقيقة سياسية أي" مسيسة " أكثر منها علمية أو أكاديمية، فإنها تكون نظرية متحيزة بالتالي يكون من الصعوبة بمكان الإقرار بأفضلية هذه النظرية أكاديميا، أو الإقرار بعلمية المواضيع التي تتناولها، و إذا كانت النظرية هي دائما تعبير عن مصالح سياسية أكثر منها نظرية علمية أكاديمية، فإن علم السياسة لا يمكن اعتباره علما إنما مجرد سياسة.

- أن النظرية هي دوما من أجل شخص معين و لهدف ما، و هو ما ينزع كل موضوعية وعلمية منحت للنظريات التقليدية في العلاقات الدولية، و يعوض قلب النظرية بالمعيارية الذاتية Subjective Normativite، هذه العبارة تشير بطريقة واضحة للانعكاسية Reflexivity الأنتولوجية الإبستمولوجية والمنهجية التي تميز النظرية النقدية في الاقتراب للسياسة العالمية، ما جعل **ستيف سميث** يصنفها ضمن صوره الذاتية Self - Images ضمن الحوار بعد -الوضعي.

- كما ينطلق **كوكس** من فرضية أساسية بصدد الاقتراب للنظام الدولي القائم، وهو أن النظريات التقليدية في العلاقات الدولية أو نظريات حل المشكلة " Problem - Solving Theory " بتعبير **كوكس** و خاصة النيوواقعية و النيولبرالية ليست نظريات غير متخصصة أو غير فعالة لكنها تقلص أنطولوجيتها

في التحليل في الزمان و المكان – تجاهل التفاعلات الاجتماعية – تاريخية وسائل الإنتاج – اعتبارها الدولة فاعل وحيد أو أساسي، و بهذا الصدد يقدم النقديون حجة واقعية عندما عجزت النظريات السابقة عن التنبؤ بأحد أهم التغيرات في النظام العالمي في القرن العشرين و هو انهيار المعسكر الشرقي، و ذلك لأن الأنطولوجية تجاهلت دراسة العلاقات داخل دولاتية من جهة و من جهة أخرى كانت غير قادرة على أن تضع في الحسبان التغيرات الاجتماعية التي سبقت الانهيار السوفييتي، هذا دون الحديث عن عجزها عن التنبؤ بالظهور المذهل لأشكال جديدة من المقاومة غير الدولية"Non States " في العلاقات الدولية أمام فاعلين جاهزين ليكونوا قنابل بشرية.

- **مفهوم الأمن في المدرسة النقدية:**

في مقالته لعام 1991 "الأمن و التحرير"، وصف **كين بوث** العلاقة بين الأمن و الإستراتيجية والنظرية النقدية و عرف "الأمن" على أنه يعني عدم وجود تهديدات، أما التحرر فهو تحرير الناس كأفراد وجماعات من تلك القيود المادية و البشرية التي تمنعهم من تنفيذ ما يختارون القيام به بحرية والحرب والتهديد بالحرب هي واحدة من تلك القيود، إلى جانب الفقر و سوء التعليم و القمع السياسي وغيرها ومن تم الأمان والتحرر وجهان لعملة واحدة، كما أن التحرر و ليس القوة أو النظام، ينتج الأمن الحقيقي.

و هو ما يجعل من الأمن حسب النظرة النقدية يشتمل على عدد من المجالات و القطاعات التي تتعدى البعد العسكري، و ذلك نظرا لظهور مصادر جديدة للتهديدات و التي تستدع العمل لمواجهتها، خاصة من خلال وضع سياسات أمنية جادة و فعالة.

و بالتالي تم الانتقال من المقاربة الآلية للأمن إلى المقاربة التأملية، و لم تعد الدولة الموضوع المرجعي للأمن أو إضافة موضوع مرجعي إضافي، بل تم استبدالها بالفرد كوحدة تحليل أساسية، الذي وضع في قلب التحليلات النقدية، لأن الدولة حسب العقد الاجتماعي مجرد وسيلة لضمان حقوق الأفراد و حمايتها وليست غاية في حد ذاتها، و إذا مست الدولة بإحدى هذه الحقوق تكون قد أخلت بوظيفتها، و بالتالي شرعيتها و في هذا الإطار، تطورت النظرية النقدية في القيم الأخلاقية و العدالة في العلاقات الدولية وتمخض عن ذلك ربط الأمن بمفهوم التحرير: EMANCIPATION.

- **مدرسة باريس للدراسات النقدية:**

بدأت مع تسعينات القرن الماضي، تركز على الأمن الداخلي، حيث أعادت تشكيل الحقل الأمني من خلال معالجة الأمن كتقنية للحكومة، أي ممارسة الرقابة و الضبط الاجتماعي باستعمال التكنولوجيا: كاميرات

المراقبة، أجهزة تحديد الهوية و المراقبة عن مسافة بعيدة، و ثانيا شبكة مهنيي الأمن، و هم الخبراء في مجال الأمن الداخلي و الخارجي: الشرطة، الجنود، الدرك و الجمارك و حراس السجون و أعوان المطار.

و ظهرت الدراسات تحت إشراف الأستاذ **ديديه بيغو**، حيث تم الاعتماد على تغيير مواقع التخصص من العلاقات الدولية إلى النظرية السياسية و علم اجتماع الهجرة و علم الإجرام و القانون كما استعانوا بمساهمات الخبراء في المجالات التي تغطي الأمن الداخلي من شرطة علمية....الخ .

و بالتالي، فقد اهتمت مدرسة باريس بالطبيعة الجديدة و المتغيرة للعنف السياسي، فبدلا من التركيز على التمثيل الكلاسيكي للعنف: الحرب، اهتمت بمستوياته الدنيا و الأقل علنية مثل الجريمة و التصفية التعذيب و الاختطاف، كما ركزت على انعدام الأمن المجتمعي كمشكلة الهجرة و الجريمة المنظمة ومظاهر الاحتجاج و الشغب و مراقبة الحدود و نقاط العبور.

كما أن العولمة الأمنية أدت إلى تصاعد فكرة عالمية انعدام الأمن بفعل تهديدات الهجرة و الجريمة المنظمة و انتشار الأوبئة و أعمال الشغب، و بالتالي تلغي التمييز بين الأمن الداخلي و الخارجي كذا التمييز بين مظاهر الحرب التقليدية و ظواهر أخرى كالجريمة و النظام العام و تحقيقات الشرطة.

- **مدرسة أبريستويث للدراسات النقدية:**

تعرف أيضا بالمدرسة الويلزية، برزت في بداية التسعينات 1919، يركز مفكروها على ثلاث نقاط أساسية:

- الانعتاق كمادة للدراسات الأمنية.
- الأفراد كموضوع مرجعي للحقيقة الأمنية.
- إعطاء دور مهم للمؤسسة الأكاديمية في إنتاج الحقيقة و المعرفة الأمنية.